هوسرل — بادئ ذى بدء — نحو الدراسات الرياضية، فكانت رسالته للدكتوراه عن «نظرية حساب المتغيرات» (عام ١٨٨٣). ثم اشتغل فيلسوفنا بالتدريس فى جامعة هال Halle حيث أصدر الجانب الأكبر من مؤلفاته الأولى؛ وانتقل منها بعد ذلك إلى جامعة جوتنجن عم ١٩٠٦ حيث شغل كرسى الفلسفة حوالى عشر سنوات، ثم توجه بعد ذلك إلى جامعة فريبورج حيث ظل يشغل كرسى الفلسفة بها من عام ١٩١٦ إلى عام ١٩٢٨ حين أحيل إلى التقاعد. وكان هوسرل باحثًا حرًا آمن بالاستقلال الفكرى وضرورة احترام حرية التعبير، فلم يشأ أن ينضوى تحت لواء النازية، بل ظل محتفظًا بحريته الفكرية، حتى بعد سيطرة الفاشية النازية على الفكر الألمانى. ومن هنا فقد اعتبره بعض «الآريين» الذين أخذوا عنه، مجرد «مخرف عجوز»، بينما رفض هو — حتى آخر نسمة من حياته — أن يتنازل عن حريته الفكرية، أو أن يذعن لأية سلطة سياسية استبدادية. وكانت وفاته عام ١٩٣٨ بعد حياة طويلة مليئة بالنشاط والعمل، حافلة بالبحث والدراسة[١]...

وقد ترك لنا هوسرل إنتاجًا فلسفيا ضخما لعل أهمه: «فلسفة الحساب» (سنة ١٨٩١)، وهو الكتاب الذى انتقده فريجة ووجه إليه الكثير من المآخذ، و«مباحث منطقية» (الذى ظهر الجزء الأول منه عام ١٩٠٠، والجزء الثانى عام ١٩٠١)، ثم مقالته المشهورة عن «الفلسفة بوصفها علمًا دقيقًا صارما» (سنة ١٩١٠)، ثم كتابه الضخم: «أفكار: مدخل عام إلى علم ظواهر خالص» (سنة ١٩١٣)، ثم مقالته المشهورة عن «الفينومنولوجيا» بدائرة المعارف البريطانية عام ١٩٢٧، ثم كتاب «ظواهر الوعى الباطن بالزمان» (عام ١٩٢٨)، ثم كتاب «المنطق الصورى والمنطق الترنسندنتالى» (عام ١٩٢٩)، ثم كتاب «التأملات الديكارتية» (سنة ١٩٣١)، ومقاله عن «أزمة العلوم الأوربية» (سنة ١٩٣٦)، وأخيرًا كتابه «التجربة والحكم» الذى ظهر عام ١٩٣٩ (أى بعد وفاته بعام

(١) Cf. Weber & Huisman: **"Tableau de la Philosophie Contemporaine"**, Fischbacher, Paris, 1957, p. 340.

من بعض الوجوه، ولكننا هنا بإزاء «أرسطو جديد» قد وقع تحت تأثير التراث المدرسى، كما خضع لبعض المؤثرات الكانطية الجديدة، فضلا عن تتلمذه على يد برنتانو Brentano صاحب «فلسفة الماهية»(١). وإذا كان فى استطاعة مؤرخ الفلسفة المعاصرة أن يدرج مفكرين مثل برجسون أو رسل أو مور أو وايتهد أو غيرهم تحت اسم بعينه أو أسماء بعينها، فإنه قد يجد صعوبة كبرى فى أن يقول عن مذهب هوسرل إنه واقعى أو مثالى، خصوصًا وأن صاحب «فلسفة الظواهر» قد قدم لنا منهجًا فلسفيًا أصيلا لا يصح اعتباره واقعيًا أو مثاليًا. وإذا كان بعض المؤرخين قد حاولوا أن يرجعوا كل مذهب هوسرل إلى «واقعية الماهيات» التى كانت هى كل ما عرفه النقاد عنه حتى عام ١٩٣٠، فإن انتشار باقى كتبه من بعد، وفى مقدمتها كتاب «الأفكار» وكتاب «التأملات الديكارتية» قد حمل البعض على جذب هوسرل نحو ضرب من «المثالية»، ألا وهى المثالية المتعالية (أو الترنسندنتالية). والحق أنه ليس لفلسفة هوسرل طابع مكتمل محدد: فإن هذه الفلسفة قد اتخذت لنفسها منذ البداية طابع «البحث المستمر» الذى يجزع من كل مذهبية متحجرة، وينفر من كل تنسيق دوجماطيقى. ونحن نعرف كيف أن عملية نشر مخطوطات هوسرل لا زالت قائمة على قدم وساق، فليس فى وسعنا أن نقنع بما نشر حتى الآن من أعماله، بل لا بد لنا من أن نسلم بأن أحدًا لا يعرف حتى الآن ماذا كانت «الكلمة الأخيرة» فى فلسفة هذا العملاق الفكرى الهائل الذى كان يعد نفسه دائمًا مجرد «مبتدئ» فى عالم التفكير الفلسفى!

سيرة هوسرل وإنتاجه الفلسفى

ولد إدموند هوسرل بمقاطعة مورافيا عام ١٨٥٩. وقد تتلمذ فى شبابه على برنتانو بمدينة فينا فى الفترة من عام ١٨٨٤ إلى عام ١٨٨٦؛ وكان برنتانو خصما لدودًا لكل نزعة مثالية فتشبع هوسرل فى شبابه بالروح الواقعية. وقد اتجه اهتمام

(١) Bochenski : **"La Philosophie contemporaine en Europe."**, 1967, Payot, Petite Bibliothéque, No 7, p. 110.

الباب السادس الفلسفة الفنومنولوجية

الفصل الثالث عشر إدموند هوسرل

(١٨٥٩ — ١٩٣٨)

١ — فلسفة الظواهر بين « المنهج » و « المذهب »

إذا كنا قد التقينا لدى فلاسفة التحليل ودعاة الوضعية المنطقية بمحاولات عديدة من أجل إحالة «الفلسفة» إلى «علم»، وإفساح المجال أمام الدراسات المنطقية واللغوية، فإننا لن نعدم لدى إدموند هوسرل محاولة أصيلة من أجل جعل الفلسفة علمًا دقيقًا صارمًا، واهتمامًا كبيرًا بالكثير من المسائل المنطقية واللغوية، خصوصًا ما دار منها حول «المعنى» و«العملية الإشارية» و«السيمانطيقا»... إلخ. وليس من شك فى أن لهوسرل أهمية كبرى فى تاريخ الفلسفة المعاصرة: لا لأنه قد وسم بطابعه عددًا غير قليل من التيارات الفلسفية المعاصرة فحسب، بل لأنه قد نجح أيضًا إلى حد كبير فى وضع منهج فلسفى جديد، ألا وهو المنهج الفنومنولوجى. ولم يكن هوسرل مجرد فيلسوف عادى، بل لقد كان عبقرية فكرية هائلة، فكان نشاطه الفلسفى جهدًا متصلا لم يعرف الإعياء يومًا طريقه إليه، وكان إنتاجه الفكرى تحليلا عقليًا نفاذًا استمر صاحبه ينقحه ويعمقه أكثر من نصف قرن! والحق أنه ليس أعسر على مؤرخ الفلسفة المعاصرة من الكتابة عن «فلسفة الظواهر»: فإن رائد هذه الحركة قد قدم لنا فلسفته بطريقة تكنيكية دقيقة، فضلا عن أنه هو نفسه قد عدل من مذهبه أكثر من مرة. وعلى الرغم من أن هوسرل — باعتباره كاتبًا فلسفيًا — يعد نموذجًا يحتذى فى دقته وصرامته، إلا أن قراءة أعماله الفلسفية عمل شاق جهيد، لا لعسر اللغة التى يستخدمها، بل لعسر الموضوع الذى يعالجه. وقد يكون من الممكن أن نشبه هوسرل بأرسطو